قصة بقلم

آيـة محمـد

في مثل هذا اليوم

فـي مـثل هــذا الـيـوم

إهـــــداء

إلى أولئك الذين يفقدون الأمل و يتملكهم اليأس في أحلك الظروف، كتبت هذه القصة لكم، قصة تحمل في طياتها معاني جميلة، إذ ستلاحظون كلما وقعت محنة كلما لازمها الفرج، فلولا خروج يوسف غاضباً في الليل ليشتم بعض الهواء لما صادف متجر الأثاث المستعمل و لما جنى بعض المال، و لولا حدوث إصابة لأحد العمال لما ساعده يوسف و حصل على المال و فرصة للبحث عن عمل في الميناء، و لولا حادث السيارة لما قابلا العم حسن و الذي أمدهما ببعض الأمل الذي كاد مخزونه ينفد من يوسف، و لولا مغادرة السفينة التى أتيا للعمل على متنها لما قابلا السيد آدم و الذي سيغير حياتهما تغييرا جذرياً، و بنفس الوتيرة ستلاحظون العسر و اليسر متلازمين في قصة السيد آدم أيضاً ... لذا كونوا على يقين مهما مررتم بظروف سيئة لا تفقدوا الأمل أبداً، واستشعروا لطف الله الخفي فما ضاقت إلا فرجت. –

يقف يوسف أمام المطعم في انتظار طلبه.

-طلبك جاهز.. تفضل.

يوسف بابتسامة: شكرا لك.

مشى يوسف مبتسماً، أخرج ما تبقى من جيبه، لم يبق معه إلا القليل، نظر إلى ماله بق–لق ثم أدخله جيبه و صعد السلم.

انها الساعة 3:00 عصرا.

يفتح باب الشقة ويضع حذاءه عند الباب.

- علي.. لقد أتيت.

يخرج علي لاستقبال اخيه: مرحبا يوسف، كيف كان يومك هل وجدت وظيفة؟

- خذ هذا و ضعه على الطاولة سأغسل يدي و آتي على الفور، دعنا نأكل اولاً.

- حسنا.. ماذا جلبت؟

- افتحه وسترى.

اغتسل يوسف وبدل ملابسه ثم جلس على طاولة الطعام: اااه... مشيت كثيرا اليوم تؤلمني قدماي، كيف كان يومك، هل تحدث معك المدير مجددا بخصوص رسوم الدراسة؟

- لا، لكني لا أحب نظراته، اتمنى ان انهي دراستي في أقرب وقت، بدأت اكره الدراسة.

- توقف عن قول هذا، كل شخص في هذا العالم يقوم بما هو مكلف به، انت الآن طالب لذا عليك الاهتمام بدراستك.. كيف ستهتم بها ان كنت تشعر بأنها عبء؟

- لكنها كذلك بالفعل، انت طالب ايضا و تعرف ما الذي اعنيه.

- كل واصمت ... اجلب لي الماء.

قام علي لجلب الماء لأخيه ثم عاد يقول: لم تخبرني هل وجدت وظيفة؟

- لا كالعادة... لقد تعبت حقا، لا اعرف ماذا افعل.

- لا بأس ... الذنب ليس ذنبك، لقد فعلت ما بوسعك حاولت بما يكفي انا شاهد على هذا، توقف عن البحث و سنحاول العيـــش بما لدينا من مال والدي ألا يكفي؟

- ان كان يكفي ما الذي سيجعلني ابحث عن وظيفة؟ رسوم دراستنا، ايجار الشقة، و مصروفات المرافق و المأكل و الملبس، و إذا مرض أحدنا علينا أن نضع الظروف الطارئة أيضاً في الحسبان كيف سنتكفل بكل هذا؟

- و لكن كيف كان يتصرف أبي إذاً؟

- كانت امك تعمل ايضاً، لكنها كانت تعمل عملاً حرا ليس لها معاش، بمجرد موتها انقطع الدخل، لذا الآن نعتمد فقط على معاش والدك فعليّ ان احل محل والدتك لنرجع ذلك التوازن المادي قليلا.

- حسنا ما رأيك سأتوقف عن الدراسة و بذلك نوفر رسوم دراستي، انا لست شغوفا بالدراسة على اية حال.

- هلا توقفت عن المزاح.

- لكني لا امزح، حقا لا داعي للدراسة، ماذا سأصبح مثلا مهندسا، طبيبا، انا لن اصبح كذلك على الاطلاق لست متفوقا مثلك و حتى لو تخرجت انظر الى نفسك انت طالب جامعي و تبحث عن وظيفة و لم تجد، فلِمَ اضيع عمري في دراسة لن تنفعني و لن اعمل بشهادتي، انت تعرف بالفعل ان الكثير من اصحاب الشهادات العليا يعملون في وظائف بسيطة، ما بالك بي اذاً؟!

- كان حلم امك ان تراك في منصب مرموق، هل ستتخلى عن ذلك؟

- حسنا لنكن واضحين يا اخي، كان حلم امي، لكنه لم يكن ابدا حلمي، انما حلمي ان اجني المال و اشعر بالنجاح في الحياة العملية بغض النظر عن الشهادات و المناصب المرموقة هذه شعارات، امثالنا لا يحققونها، بل يحلمون بها فقط.

- و كيف ستحقق المال ان كنت جاهلاً، عليك دراسة إدارة الأعمال إذاً.

نظر إليه علي نظرة (هل تمزح معي)، فابتسم يوسف و قد نظر لأسفل و كأنه استسلم للواقع، دق الباب فقام ليفتح قائلا: رتب الطاولة سأرى من بالباب.

يفتح ليرى المالك و قد دخل دون استئذان و جلس على الكرسي، نظر يوسف اليه باشمئزاز ثم تبعه و جلس امامه و قال: ما الأمر؟

_ تعرف ان الشهر الجاري هو آخر شهر في عقد الايجار، اليس كذلك؟

-... اذاً؟

_ اريد ان اعرف هل ستستمرا في العيش هنا ام تريدان المغادرة؟

- اسمع... لقد انشغلت كثيرا و لم افكر بهذا لذا لم نقرر بعد سأخبرك حالما نقرر.

_ لكن في اقرب وقت، لأنه لو قررتما المغادرة سيتعين علي البحث عن مستأجر آخر، أما إن قررتما الاستمرار فلابد ان تعرف ان الايجار سيرتفع بنسبة 30%.

- ماذا، كيف تكون جشعا هكذا، انت تعرف وضعنا الحالي .

_ جشع ؟ اجل انا كذلك ان اردت فأبقى و إلا فلترحل انت و اخوك المتسول هذا.

غادر المالك وقد ترك خلفه آثار حذاءه القذر وكم كان يكره يوسف هذا.

نظر يوسف نحو علي غاضبا و جره من قميصه مستفسرا: هل أخذت من ابنه المال مجددا... هل فعلت؟ الم اخبرك ان تبتعد عن هذا الفتى، الم اخبرك ان تطلب مني متى اردت مالا؟

جلس علي على الكرسي و قد وضع رأسه بين يديه متوترا، دخل يوسف غرفته و قد اغلق الباب بقوة خلفه و بعد دقائق عاد بالمال و وضعه على الطاولة امام علي و حذره بحزم: اياك و اخذ المزيد من ذاك الفتى، خذ هذا المال و رده له في الغد و لا تأخذ منه شيئا، هل كلامي واضح؟

اجاب علي بصوت خافت: حسنا.

اعاد يوسف سؤاله: هل كلامي واضح؟

رفع علي صوته: اجل.. اجل.

تركه يوسف و عاد لغرفته و قد اغلق الباب و غرق في محيط من الافكار.

ارتدى يوسف ملابسه و قرر البحث مجددا عن اية وظيفة تضمن له الرحيل من هذه الشقة في أقرب وقت، خرج الى غرفة الجلوس وكان علي يجلس في حزن قال له يوسف: سأخرج قليلا لا اعرف متى أعود، إن اردت شيئا او طرأ امر ما اتصل بي... اه اذهب و اعطي المال لابن المالك امامه، لا ادعي لانتظار الغد و تأكد من ان المالك يراك و انت تعطي المال لابنه، سأغادر.

كانت الساعة السابعة مساءً، سار يوسف حتى وصل الى وسط المدينة رأى رجلا ينقل بعض قطع الاثاث الى محل لشراء الادوات المستعملة، أوقف صاحب المحل و سأله: هل تشتري الاثاث المستعمل يا سيدي؟

قال الرجل: نعم نشتري الاثاث المستعمل و نعيد تشكيله و بيعه من جديد.

سأله يوسف : بكم تشتري القطعة؟

قال الرجل: على حسب نوع القطعة و جودتها، ألديك أساس تريد بيعه؟

- أعتقد ذلك، هل تشتريه؟

- أجل بالطبع.

- إذاً سأتي بعد قليل لا تغلق ارجوك.

- لا لن افعل سأنتظر.

عاد يوسف الي الشقة بأقصى سرعة، فتح الباب و بدأ بتفقد الأثاث و الذي شعر بأن المنزل مليء بأشياء كثيرة لم يعد لها قيمة بعدما أصبحا أثنين فقط بعد وفاة والديهما.

- علي...علي .

خرج علي من غرفته: ما الامر يا يوسف؟

- لقد وجدت فرصة لجني المال، هناك في وسط المدينة محل لشراء الاثاث المستعمل في الواقع لم يخبرني بكم سيشتري لكن سأحاول الاتفاق على مبلغ جيد ابحث معي عن أي قطعة أثاث لا نريدها، اسمع نحن اثنان فقط لا داعي لكل هذه الكراسي ليس لدينا زوار على اية حال، و الطاولة الكبيرة لا نستعملها و سرير والدينا لا حاجة له، و حاملة الحقائب و مكتب والدي ، اظن ان هذا يكفي سأذهب لأجلب سيارة نقل صغيرة، اجمعهم و ساعدني في حملهم لن أتأخر.

عاد يوسف بعد بضع دقائق و بدأ هو و علي بنقل الأثاث الي السيارة التي استعارها من صاحب المطعم المجاور، ثم اتجها نحو محل الأثاث بدأا بنقل الأثاث الى المحل، اعطاه الرجل مبلغ لا بأس به ففرحا بالمال و عادا بالسيارة الي المطعم و قد اشتريا العشاء و صعدا للشقة، تناولا العشاء ثم دخل علي ليغتسل قبل النوم فذهب يوسف الي حقيبة علي و وضع بها مبلغ من المال كي لا يطلب من احد، و اتجه نحو غرفته لينام.

11:00 صباح اليوم التالي.

كان علي في مدرسته، حضر يوسف الفطور و أكل ثم ارتدى ملابسه و غادر مجددا نحو محل الأثاث.

- صباح الخير يا سيدي.

- مرحبا، كيف حالك؟

-بخير شكرا لك، لقد وجدت المزيد من الأثاث لدينا في المنزل هل أجلبه لك؟

- حسنا أنا في انتظارك.

- سآتي في الحال.

مجددا استعار سيارة المطعم و وضع بها خزانة الملابس و خزانة المطبخ، و ذهب للمحل و اخذ فيهما مبلغا جيدا، غادر المحل و مشى بالسيارة قليلا ثم توقف لعد المال، و بينما يعد المال استرعى انتباهه سيارة واقفة امامه ببضع مترات كانت سيارة محملة بصناديق من الاسماك و المأكولات البحرية ينقلها العمال الى احد المطاعم الفاخرة، بينما كان احد العمال خارجا من المطعم لأخذ صندوقا اخر اصطدم به سارق بدراجة نارية كانت تجري خلفه امرأة و تصرخ، وقع العامل على الأرض و قد لوي كاحله، و اختل توازن الدراجة النارية، انتبه يوسف لذلك فسرعان ما ادخل المال في جيب سترته الداخلي و فتح باب السيارة فوقع السارق على الأرض و أخذ يوسف منه حقيبة المرأة و أعطاها لها، و فر السارق هاربا قبل أن يبلغ عنه أحد، شكرته السيدة فابتسم لها و هرول نحو العامل يساعده و قال له: لا عليك استرح و انا سأساعد.

اخذ يوسف الصندوق و أعاده و أخذ غيره و بدأ في إدخال الصناديق الواحد تلو الآخر و عندما انتهوا وقف الجميع ليأخذ كل منهم حصته من المال و كان يوسف بينهم، توقف سائق الشاحنة أمامه و كانت رأسه لأسفل يقوم بعد المال فرفع عينيه ثم رأسه متسائلاً و قد أمسك بفك يوسف و ذقنه بحزم محركا وجهه يمينا و يسارا : أتظنني مغفلاً؟ من أنت؟

و لكمه في معدته لكمة قوية جعلته ينحني، فناداه العامل الذي أخذ يوسف مكانه و قال: اهدأ قليلا إنه قريبي كان في الجوار و رآني فقرر مساعدتي لأنني أُصبت، ألا ترى؟

أعاد سائق الشاحنة النظر إلى يوسف باشمئزاز و أعطاه ست ورقات فئة خمسين و قال: أنت و قريبك ذاك تقاسما المال كما تريدان.

عاد العمال الى الشاحنة و اتجه يوسف نحو العامل المصاب: شكرا لك، خذ هذه حصتك سآخذ مئة.

العامل: خذ النصف انا لم اعمل كثيرا.

- لا بأس لقد انقذتني للتو، تعال سأحملك.

- هل انت جاد؟ كل هؤلاء اصدقائي لكن انظر لم يساعدني أحد.

- لا بأس يا أخي، انا في خدمتك تعال.

- شكرا لك.

حمل يوسف العامل الى الشاحنة، و قبل ان يغادر سألهم عن عمل فأخبره العامل أن يسأل السائق، اتجه يوسف نحو السائق و كان الزجاج مغلقاً، فطرق عليه بلطف و نظر اليه السائق بغضب، أنزل الزجاج و قال: ماذا الآن، ماذا تريد؟

- اعذرني يا سيدي و لكن هل تحتاجون الى عمال، انا ابحث عن عمل و فكرت في...

- انا لست صاحب الشركة، لكن لا اعتقد انهم بحاجة لعمال، بالكاد يدفعون لهؤلاء.

ثم اخرج بطاقة من جيبه و اعطاها ليوسف و قال: لا أعرف ، اذهب الى هذا العنوان و أسألهم لديهم رحلة شاقة غدا ربما يكونوا بحاجة الى عمال.

- شكرا جزيلا لك، سأفعل... الى اللقاء سيدي، قد بحذر شكرا لك.

وضع يوسف المئة جنيه بالاضافة الى المال الذي أخذه من بيع الأثاث هذا الصباح و شعر بجني الكثير في يوم واحد، كان سعيدا خاصة أنه ربما يحصل على عمل و هذا بالضبط ما يريده، نظر في البطاقة التي أخذها من السائق ثم أدخلها في جيبه و انطلق في طريقه.

4:00 عصرا.

بينما علي عائد مر بالمطعم ليشتري فطائر محشية ليأكل هو و يوسف سأله صاحب المطعم: مرحبا علي، أخبر يوسف أن يتصل بي ؟

- سأصعد و أخبره أنك تريده.

- لا هو ليس في الشقة، لقد أخذ سيارتي منذ الصباح و لم يرجعها حتى الآن.

- لم يعد منذ الصباح، اين ذهب الم يخبرك؟

- لقد ذهب لبيع بعض الأثاث مجدداً، لكنه تأخر كثيراً.

تعجب علي و قال: أجل تذكرت، ربما يبحث عن وظيفة ... سأتصل به، نادني عندما تجهز الفطائر.

ابتعد علي قليلا و وقف بجوار شجرة و اتصل بيوسف..

رن هاتف يوسف بينما يقود السيارة حاول أن ينتبه للطريق و يرد على أخيه أيضاً، وقع منه الهاتف و هو يخرجه من جيبه، لكن لم يلق بالاً لأن الاتصال توقف و كانت امامه سيارة، عاود علي الاتصال فتردد يوسف في الرد لكن قامت السيارة امامه بالانعطاف يمينا فكان امامه مجال ليبحث عن الهاتف، نزل بسرعة و التقط هاتفه، لكن عندما نهض لم يتحكم جيدا بالمكابح فزادت سرعته و حاول تفادي الوقوع في حادث مميت، فصعد على رصيف من أجل تخفيف السرعة و عدم الاصطدام بالآخرين فأصطدم بشجرة.

عاد علي الي المطعم و قال: انه لا يجيب، ربما لم يسمع سأحاول الاتصال به مرة أخرى، هل الفطائر جاهزة.

- اجل تفضل 60.

دفع علي ثم صعد الشقة.

5:00 مساءً.

اغتسل علي و وضع فطيرة على الطاولة و ترك الاخرى ليوسف، جلس و اشعل التلفاز و بدأ يبحث عن اية برامج يشاهدها بينما يأكل.

كان يأكل و دق جرس الباب، صرخ علي و فمه مليء بالطعام : قادم.

فتح الباب و وجد شاباً حاد الملامح قال: قمامة.

هَمّ علي بضربه وقال: من القمامة ايها ال...

قال الشاب: مهلا مهلا انا لا اسُبّك، اريد القمامة، هل لديكم قمامة؟

هدأ علي و ربت على صدر الشاب و ابتسم له و قال متنحنحاً: اجل يوجد انتظر هنا.
كان هاتف علي يرن لكنه كان صامتاً فلم ينتبه له، كان اخوه يوسف، ذهب علي لجلب القمامة و اعطاها للشاب و اعطى له نصف الفطيرة، ثم عاد.
جلس يكمل ما تبقى من الفطيرة و وردت رسالة على هاتفه نظر إليه فوجد اتصال من يوسف فتذكر أن يتصل به، عاود علي الاتصال، فأجابته ممرضة لكنه لم يسمع جيدا لم تكن الشبكة جيدة في المشفى فقالت له: انتظر يا سيدي سأخرج، اقول لك ان صاحب هذا الرقم هنا ما علاقتك...
اغلق علي الخط لم يكن يسمع شيئاً، كانت الممرضة قد خرجت في الهواء الطلق فأتصلت هي به.
فرد علي: الو، اين أنت لماذا لم اسمع شيئاً؟
- اجل يا سيدي اقول لك ان صاحب هذا الرقم هنا في مشفى الشفاء وسط المدينة، وجدنا رقمك في قائمة المتصلين ما علاقتك به هل تعرفه؟
- من انتِ؟ ماذا تقولين؟ اية مشفى؟
- يا سيد، وقع حادث على الطريق كان هذا الشخص في السيارة و هو الآن في مشفى الشفاء هل تعرفه.
اغلق علي الخط و قام فزعا و هرع يبحث عن مال، أخذ ما وجده و اسرع نحو الطريق، اوقف سيارة أجرة لكنها لم تقف له، حاول أن يجري بأقصى سرعته، جرى مسافة طويلة حتى وصل إلى مشفى على الطريق لكنها لم تكن مشفى الشفاء لم يكن يعرف أين هي مشفى الشفاء فأوقف سيارة أجرة أخرى فوقفت و ركب: مشفى الشفاء ارجوك اسرع.
وصل علي الى المشفى دخل تائها سأل في الاستقبال فأخبروه انه في الطواريء، ذهب إليه و تكاد ساقه لا تحمله، أزاح الستائر ببطء، كان يخشى أن يراه في هذه الحالة لكنه رآه على السرير.
أدار ظهره و كتم فمه بيده و سالت دموعه، ربت على كتفه من الخلف طبيب، نظر إليه علي و مسح دموعه بسرعة: ما حالته ايها الطبيب ما الذي حدث؟
- لا داعي للقلق، انه فقط نائم، ركبنا له بعض المحاليل لأنه بحاجة إلى الكثير من السوائل و بعض المعادن ، لكن الأمر ليس خطيراً، يمكنك البقاء معه سيستيقظ بعد قليل.
- شكرا لك.. شكرا لك.
جلس علي و أمسك بيد يوسف بيديه الأثنتين و بدأ بالحديث: الحمدلله.. يا إلهي أنا لاأقوى على فقد أخي هو كل ما تبقى لي، كان غاضباً مني أمس، لن أزعجه مجددا أبداً ساعدنا يا إلهي.

فتح يوسف عينيه ببطء كان علي قد غفا على يده، فمسح بيده الآخرى على رأسه ففاق يتفقد أخاه: هل استيقظت.. هل انت بخير؟ ثم بدأ في البكاء: ما الذي حدث لك؟ لا تبحث عن وظيفة أخرى توقف عن هذا سأترك المدرسة، حسناً.
نظر إليه يوسف و قال بصوت خافت: ساعدني في الجلوس.
ساعده علي و ظل واقفا، فقال يوسف: اجلس، انا بخير.
جلس علي ثم تنفس يوسف الصعداء و قال: انا اسف يا علي، لم يكن عليّ أن اقلقك، كنت ذاهب للحصول على وظيفة لكن أتاني اتصال ظننته أنت.. لا أعرف، هل كنت أنت؟
- اجل لقد اتصلت بك.
- اجل و من غيرك، هل حدث شيءٌ ما؟
- و ما الذي سيحدث أكثر من هذا!
- توقف عن النحيب، انا لن أعود للمنزل، لا استطيع..
- هل ستتخلى عني؟ ما الذي تقوله؟

- لم أقل انني سأتخلى عنك، كلانا يعلم اننا وحدنا في هذا العالم لا أحد يهتم بنا ، الوحيد الذي كان يزورنا كان صديق والدك و توقف عن ذلك أتعرف السبب؟

- لا، ربما منشغل.

- هو دائما منشغل لكنه كان يجد وقتا لزيارتنا ، كان يزورنا لأن والدك كان قد أقترض منه بعض المال، كان يزورنا لأدفع له لا ليطمئن علينا.. توقف عن المثالية في هذا العالم الزائف.

نظر علي لأسفل في خيبة أمل ثم رفع رأسه و قال: لكن لماذا لا تريد العودة؟

- لقد ضاع كل شيء، سيارة المطعم تحطمت ان عدنا ربما سينتظرنا بالسكين في وسط الشارع.

ابتسم علي ابتسامة ضعيفة و قال: ماذا سنفعل إذاً.

- اسمع.. انا بخير، سأنتظر حتى ينتهي المحلول ثم سنذهب للعمل على متن السفينة، سترحل غدا في رحلة طويلة انا لا استطيع تركك وحدك كل هذا الوقت سنذهب سوياً.

- حسنا سأذهب و أشتري بعض الطعام لن أتأخر.

- هل معك مال؟

-معي القليل.

- انتظر، خذ اشتري لنا شيئا جيدا.

أخذ علي المال و انطلق لشراء شيئاً لذيذا قبل الذهاب لمصير لا يعرفه.

ادخل يوسف يده في جيب السترة الداخلي، من حسن حظه انه كان بزمام مغلق، ما زال معه المال و بطاقة الشركة.

8:00 مساءً.

ازال يوسف المحلول عن جسده و خرج لدفع الحساب ثم غادر المشفى، لم يذهب بعيدا بل انتظر بالقرب من المشفى كي يرى علي عند عودته، انتظر في الهواء الطلق في احدى الحدائق العامة المجاورة للمشفى، جلس على احد الكراسي ينتظر اخاه و يفكر في هذه الخطوة المصيرية و التي لو لن تنجح لن يعرف ماذا سيفعل حينها.

جاء علي و همّ بدخول المشفى لولا أن ناداه يوسف فتعجب من وجوده في الحديقة: كيف وصلت الى هناك؟

- تعال، لا أحب الأجواء في الداخل.

دخل علي و جلب معه طعاما يحبونه، اعطى يوسف الحصة الأكبر قائلا: أكلت سابقاً فطائر محشية لست جائعا كثيرا، عليك أن تتغذى لتستعيد قوتك كيف تريد العمل و انت ضعيف هكذا.

ابتسم له يوسف ثم بدأ يأكل، استمر علي بالنظر إليه لفترة ثم نظر للسماء مفوضاً أمرهم لله فيما هو آت.

9:00 مساءً.

انهى يوسف طعامه و تبقى منه القليل اعطاه لكلب كان في الجوار ثم عاد و جلس بجوار علي.

- سننام هنا الليلة.

- ماذا؟ سننام في حديقة؟ هل نحن مشردين؟ ان كنت تخشى العودة الآن بسبب السيارة يمكننا ان نعود في وقت متأخر.

- لا الأمر ليس كذلك سننام هنا الليلة فقط، لأن الميناء قريب من هنا، لو رجعنا للمنزل سيتوجب علينا قطع كل تلك المسافة مرة اخرى و لا ندري حينها هل سنصل في الوقت المحدد ام لا.

- ان كنت تريد المبيت لمَ لم تبقى في المشفى، على الأقل لديك سرير و لن نكون ملفتين لو غلب علينا النوم فالجميع نيام في الداخل.

نهض يوسف و اتجه نحو المشفى مجددا: يا آنسة اشعر بالدوار لقد خرجت للتو من هنا لكني لست بخير الآن.

اتكأ على كتف أخيه و قادته الممرضة الي سرير طواريء مرة أخرى و ركبت له محلول و طلبت منه ان يستريح.

قال يوسف لعلي: هل انت راضي؟

- هل فعلت هذا من أجلي؟

-و من كان يتذمر في الخارج؟

- حسنا حسنا، خذ قسطا من الراحة لدينا يوم لا نعلم عنه شيئاً غدا.

4:00 صباحاً.

استيقظ يوسف و أيقظ علي: هيا انهض دعنا نذهب.

- كم الساعة اعتقد اني نمت نصف ساعة فقط اشعر بالنعاس.

- لا لقد نمت بما فيه الكفاية، هيا انهض أمامنا طريق طويل.

نهض علي و رتب ملابسه و كذلك يوسف، دفع الحساب و شكر الممرضة ثم غادرا.

- الوقت مبكر جدا، هل سنجد سيارة أجرة في هذا الوقت؟

- لا اعرف يا علي اتمنى ذلك دعنا نسير، لا يجب ان ننتظر.

- اجل هيا.. على الأقل سنقطع بعض المسافة اذا سرنا و هذا أفضل من انتظار شيء لا نضمن وصوله.

- اجل.

و بينما يسيران في الطريق وجدا سيارة، اوقفها يوسف و قال: مرحبا سيدي هل تأذن بتوصيلنا رجاءً.

- اين تذهبان في هذا الوقت؟

- في الواقع لدينا عمل في الميناء هلا اوصلتنا لأقرب مكان من فضلك؟

- أجل لا بأس، أنا ذاهب بالقرب من الميناء، اصعدا هيا.

ابتسم علي و كأنه حصل على أول بيضة من دجاجته الوحيدة، و قال ليوسف: انت ماهر.

-بادله يوسف الابتسام وقال: و ماذا تظنني.

ثم داعب شعره و ركبا بجوار السائق.

بدأ يوسف الحديث قائلاً: لا أعرف كيف أرد لك جميلك هذا يا سيدي انا ممتن لك كثيرا.

قال الرجل: و ماذا عن الآخر؟

نظر إلى علي بملامح جادة منتظرا منه أن يشكره فبدأ علي بالتلعثم:اه..أن...أنا...

ضحك الرجل بملء فاه: لا بأس يا بني كنت أمزح، لا داعي للتصرف بحذر،كن على راحتك، لدي ابن في مثل عمرك، ليته مثلك يا فتى.. اه(بتحسُّر) انه عكسك تماما، لا نتفاهم ابداً، هل كل ابناء هذا الجيل من هذا النوع؟ لكنك تبدو خجولاً، هل انت كذلك مع والدك؟

تنحنح يوسف و رد نيابة عن أخيه: لقد توفى والدي.

- اعذرني يا بني .

ساد الصمت قليلا ثم أردف قائلا: لا بأس، لا تحزنا، ربما حان الوقت لتحل محل الوالد في الاسرة، تتحمل المسؤولية و تجني المال، صحيح ان جني المال متعب بل و من الصعب الحصول عليه لكن حالما تقوم بمساعدة اسرتك و تشعر انهم سعداء بمالك ستشعر بالسعادة ايضاً، كم سيكون هذا جميلاً.

-أجل يا سيدي معك حق، لقد بحثت كثيرا عن وظيفة و ها انا ذا مجددا في طريقي للحصول علي وظيفة و أتمنى ذلك.

- هل ستعمل في البحر؟

- أجل.

- أليس عملا شاقاً عليك؟ ما زلت يافعاً!

- في الواقع لم أجرب العمل في البحر من قبل، كنت فقط اهتم بالدراسة و اسعى للتخرج و الحصول على وظيفة مرموقة في وسط المدينة، لكنه القدر ما باليد حيلة.

- اجل... انه القدر.

صمت الرجل قليلا و كأنه يتذكر شيئا ما ثم قال: لا بأس، لا تظن ان حياتك دمرت لمجرد انها لم تسير كما خطت لها، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن يا بني، في الواقع كان لدي حلم أيضاً، عندما كنت صغيرا كنت أحب إعداد الطعام كثيرا و بالفعل ذهبت لإحدى المطاعم لأعمل كطاهٍ هناك، في الواقع كان مطعم صديق والدي لذلك سمح لي بالعمل داخل المطبخ، دخلت المطبخ و قمت بتعريف نفسي على أنني طاهٍ معروف و ذو خبرة واسعة، استقبلني الجميع باحترام و سمحوا لي بطبخ الطعام، كانوا يقومون بالطهي أيضاً لكنهم كانوا ينظرون إلي كثيرا... و بينما أخذتني الحماسة حاولت رفع المقلاة لتُقلب المكونات و تطير في الهواء ، تلك الحركة التي يفعلها المحترفون.

ثم ضحك الرجل و أكمل: حينما فعلتها انقلب الطعام على وجهي كان ساخناً، ما زال أثره على جبيني.

استمر الرجل في الضحك وازاح شعره عن جبينه و نظر إليهما قائلا: انظرا ما زال الأثر هنا تماما، هل رأيتما؟

ضحك يوسف و قال: أجل اجل... انتبه للطريق أرجوك.

- لا بأس لا تقلق، ما اردت قوله هو انه لا تتمسك كثيرا بحلم انت لا تعرف هل هو جيد لك ام لا، ربما تظن انه الأفضل على الاطلاق و ان هذا مكانك الذي لا يجب أن تتواجد إلا فيه، لكن حالما تتواجد هناك ستعرف الحقيقة، ستعرف ان كان هذا الأفضل لك ام لا، لذا لابأس بالتجربة، جرب هذا و ذاك و استمر حيث تجد راحتك، لقد وجدت راحتي في مساعدة أبي في الصيد و ورثت عنه هذا العمل.

- هذا جيد.. صحيح ما اسمك ايها العم؟

- اسمي حسن.

- انا يوسف و هذا أخي علي.

- سررت بمرافقتكما يا صغار.

ضحك الرجل و قال: من العجيب ان نتعرف بعدما تحدثنا لوقت طويل، اليس كذلك؟

- ابتسما يوسف و علي و قال يوسف: اجل، لكن في الواقع أخذنا الحديث و نسينا ان نتعرف حتى.

-انما يدل هذا على ان الأهم من التعارف هو التوافق.. التوافق يا بني، لدي معارف واسعة،مئات الأشخاص لكن من بينهم جميعاً لا أملك سوى صديق واحد مقرب، ما يجمعنا هو التوافق بيننا،لذلك استمرت صداقتنا عشرات السنين، ربما انا أكبر منكما لكن صدقني العمر مجرد رقم، انا أشعر و كأني في مثل عمركما و انا اتحدث اليكما الآن.

قال يوسف بصوت يئوس: اجل يا عم حسن، كلامك صحيح العمر مجرد رقم.

- ظننتك أقوى من هذا.

- انت لا تعرف ما الذي مررت به.

- لا داعي لأن تسرد لي قصة حياتك لأتعاطف معك، لدي أقتناع و لن أغيره، بغض النظر عن اختلاف الظروف لكن لا أحد يتحمل فوق طاقته، ربما هذه هي طاقتك لكنك لا تعرف قدر نفسك بعد، كن قوياً بقدر المأساة التي تمر بها، و واجه التحديات بقلب شجاع، توقف عن التصرف كفتاة هجرها حبيبها للتو.

ابتسم يوسف قليلا، نظر اليه العم حسن بضعة مرات و قال: لا داعي لقضب حاجبيك مجددا، لديك ابتسامة جميلة.

أكمل ضاحكاً: مع ابتسامة كهذه يمكن لأي فتاة ان تقع في حبك من المرة الأولى، تذكر كلامي هذا.

- لديك قدرة على تغيير المزاج ايها العم.

- اجل اعرف هذا... و اخيرا شارفنا على الوصول.

اعتدل يوسف في جلسته ونظر لعلي وجده مستغرقاً في النوم، لم يشأ ان يوقظه الآن بدا عليه التعب فقرر إيقاظه عندما يصلوا.

5:15 صباحاً.

أيقظ يوسف أخاه علي: استيقظ هيا وصلنا.

استيقظ علي و ترجل عن السيارة و نظر إلى البحر بدهشة كانت المرة الأولى التي يرى فيها البحر، نزل يوسف و شكر العم حسن و ودعه.

أخذ يوسف يد علي و اسرعا نحو الميناء، كانت هناك العديد من السفن التجارية و مجموعة رجال يقفون بجوار الحاويات الضخمة التي لا تزال تُنقل الى السفن.

اتجه يوسف نحوهم و اخرج البطاقة التي أخذها من السائق الذي دله على العمل في الميناء، و سأل عن الشركة رد عليه رجل و قال: لقد غادرت السفينة منذ قليل.

نظر يوسف الى الرجل مندهشاً و جال بنظره لأسفل و نحوه في كل مكان ثم غادر دون كلمة.

سار خلفه علي و ابتعدا قليلا عن الرجال، ثم قال الرجل لمن معه: هيا اذاً اذهبوا للعمل.

نظر الرجل الى يوسف و علي و ناداهما: انتما... يا فتيان.

نظرا خلفهما و وجدا الرجل يلوح بيده قال يوسف: ماذا يريد؟

اجابه علي: لا يهم هيا لنغادر.

- انتظر قليلا لنرى ماذا يريد.

اتجه يوسف نحو الرجل و تبعه علي، قال يوسف: ما الامر؟

- هل جئتما لعمل؟

-أجل، لكنك قلت انها غادرت منذ قليل.

- و إن يكن، هل هكذا تواجه الامور!

أنظر حولك، أنت في ميناء هناك الكثير من السفن التجارية، لمَ لم تسأل عن عمل في أي سفينة أخرى؟

- لقد بذلت كل طاقتي بالفعل، و لم آخذ كفايتي من النوم و لم نأكل بعد، و ربما مغادرة السفينة إشارة إلى أن الخير في مكان آخر لا بأس، لا نريد العمل هنا سنغادر، شكرا لك.

غادرا يوسف و علي و قال يوسف بصوت خافت: ألن ينادينا؟ ظننته سيعرض علينا وظيفة، هل أوقفنا ليسألنا لماذا لم نسأل عن وظيفة أخرى.. يا له من رجل عجيب!

ناداهما الرجل مجددا: تعالا.. اتبعاني.

اسرع علي نحو الرجل و ما زال يوسف واقفا مكانه ابتسم و قال: ألم أقل لك...

نظر الى علي فلم يجده بجواره، نظر خلفه فرآه يسير مع الرجل، فأسرع بدوره ليلحق بهما.

طلب منهما الرجل الجلوس و ارسل في طلب الطعام.

- انا رجل اعمال كبير هنا امتلك نصف السفن التجارية، لدي الكثير من الشركات و الكثير من الوظائف بالطبع، لقد اخبرتني انك لا تريد ان تعمل هنا منذ قليل... لكن لا بأس بما اننا التقينا سأتكفل بوظيفتك و أقدم لك وظيفة في إحدى شركاتي.

- أي نوع من الوظائف ستقدمه لي؟

- حسنا اولا دعنا نتعارف، انا آدم مراد و انتما؟

- انا يوسف ادرس الطب و هذا اخي علي...

- تبدو صغيرا يا علي، كم عمرك؟

- انا في السادسة عشر ما زلت طالبا في الثانوية.

- و لماذا تريد ان تعمل في هذا العمر، لا يبدو انكما مشردان! ماذا عن والدكما؟

- بالطبع لا يا سد آدم لسنا كذلك، كما اخبرتك انا طالب ثانوي او ربما لم اعد كذلك في الواقع لا احب الدراسة لذا قررت ان اتركها و...

قاطعه يوسف قائلاً: لقد توفيا والدينا في حادث سيارة...

رمقه السيد آدم بنظرة تساؤل و قد أمال رأسه قليلا و قال بصوت هاديء كبحيرة راكدة: لا أذكر أنني وجهت حديثي إليك!

نظر اليه يوسف ثم تبادل النظرات مع علي، استعجب من نبرة الرجل و بدت عليه الحيطة و الحذر.

قال يوسف: لم أكن أعلم أن الإستئذان ضروري لأتحدث.

- حسنا.. أظن أنك لن تنسى هذا الموقف.

ازداد توتر يوسف من هذا الرجل الذي ما زال غريباً بالنسبة له و استعدا للمغادرة هو و علي و لكن أوقفوهما رجال السيد آدم و قد ألتفوا حولهما مشكلين دائرة، أومأ السيد آدم إلى رجلين من رجاله مشيراً إلى إبعاد علي.

أمسكا رجلين بعلي، بينما تجمع الآخرون حول يوسف أمسكا اثنين به و تقدم ثالث نحوه بغطرسة ثم لكمه لكمة قوية، حاول علي أن يفلت من قبضتي الرجلين و نظر باشمئزاز نحو السيد آدم صارخا: ما الذي تفعله؟؟

استشاط علي غضباً و بكى كثيرا لكن لم يلبث غضبه طويلاً إذ سرعان ما تحول إلى وهن و خارت قواه و هو يرى كل ما يملك في هذا العالم يضيع أمام عينيه، ظن أنها النهاية و أن أخاه لن يصمد طويلاً ... لقد فقد علي وعيه.

لاحظ السيد آدم جسد علي الملقى على الأرض، أشار لأحدهم فاتجه نحو يوسف و حقنه فارتخت عضلاته و سقط فحمله أحدهم و حمل آخر علي و غادروا.

9:00 صباحاً.

في ساحة الاستراحة لكبار الشخصيات، جلس السيد آدم و خلفه رجلين، و جلس أمامه علي و بدت عيناه مرتخيتان من الحزن و كأنه جسد بلا روح، و كأنه لا يبالي بشيء، وأي شيء سيهتم لأمره إن كان كل ما يملك لم يعد له وجود.

بادر السيد آدم بالحديث: اشرب بعض الماء.

تحدث علي بصوت مرتجف: هل قتلت أخي؟

- لا لم أفعل، أنا لست هذا النوع من الرجال..

ابتسم علي بسخرية، أشار السيد آدم للرجلين خلفه فغادرا ثم نظر إلى علي و أكمل قائلاً: أخوك بخير، لا تقلق، ما كنت لأفعل به شيء بعدما عرفته منكما.

أجاب علي باستهزاء: و ما الذي تعرفه أنت؟ هل أمثالكم يشعرون بأمثالنا، نحن في عالم قاسي ، توقف عن التصرف ببراءة لا تقل أنك مهتم أو أنك حتي تعرف كيف نشعر أنت لا تعرف أي شيء.

- و ما الذي تعرفه أنت؟

- أعرف أنكم أوغاد، أخبرني فقط أين أخي؟

وضع السيد آدم على الطاولة مجلة تعريفية عن إحدى المدارس الرائدة، نظر إليها علي و قال: ما هذا؟

- إنها مدرسة (A. M. S) أعتقد أنك سمعت عنها.

- سألتك عن أخي!

- ستلتحق بهذه المدرسة، إنها مدرسة خاصة و أنا المالك،و سيكمل يوسف دراسته الجامعية و سأتكفل بكل التكاليف لا تحملا هما و لا تفكرا في العمل، ما زلتما يافعين لن أقبل بتوظيفكما الآن، سيحصل يوسف على وظيفة في هذه المشفى بعد التخرج و ربما أكثر من ذلك.

- أين أخي ؟

- أخوك هنا، في غرفة لكبار الشخصيات، إنها أشهر مشفى خاص و هي أيضاً تابعة لي.

- ما هو مجالك بالضبط، تمتلك مشفى و مدرسة و نصف الميناء التجاري لك؟!

- أنا أوظف مالي في المشاريع المختلفة و أترك المجال للخبراء أنا فقط أكون المالك و الإدارة لي بالطبع.

-حسناً.. هل أخي بخير؟

- أخبرتك أنه بخير و في أفضل حال، رجالي لم يضربوه ضرباً مبرحاً، كل شيء كان مخططاً.

وقف السيد آدم و أحضر الحديد الذي كان رجاله يضربون به يوسف و أعطاه لعلي و قال: أنظر أنه خفيف لا يؤثر، قمنا بصنعه خصيصا لمواقف كهذه، جربه إن أردت يمكنك ضربي.

- أنتم معتادون على هذه الأفعال؟!

- أجل أحياناً إن تطلب الأمر.

أمسك علي قطعة الحديد و قال: هل أنت جاد بشأن تجربتها، أيمكنني ضربك بها؟

- اجل، هيا جربها.

وقف علي و ضرب السيد آدم في ساقه، صرخ السيد آدم قائلاً: لا لا انها القطعة الحقيقية، ظننتها المزيفة.

-ماذا تعني؟

- لدينا قطع حقيقية و أخرى مزيفة، رجالي يضربون فقط بالمزيفة و الأخرى من أجل إحداث الصوت فقط.

ساد الصمت قليلا ثم قال علي: هل يمكنني رؤية أخي؟

- بالطبع، تعال.

سار السيد آدم يعرج و تبعه علي، كانت غرفة يوسف في الطابق الثاني، لكن السيد آدم استخدم المصعد بعد الضربة التي تلقاها من علي.

تدخل الطبيبة و معها الممرضة لتغير المحلول ليوسف.

- أرى أنك أستيقظت ، هذا جيد.

- أين أنا؟

- أنت في مشفى كما ترى، و أنا طبيبة.

- ماذا حدث؟ لماذا أنا هنا؟

- ماذا ! ألا تتذكر حقاً،كيف تشعر؟ هل تشعر بتشوش أشارت بإصبعين و قالت: كم أصبع ترى؟

ابتعدت عن وجهه قليلاً ثم تمتمت: لا بأس لا بد أنه تأثير المخدر لا يجب أن أقلق.

حسناً لقد جددت لك المحلول، بضع دقائق و ستكون بخير، سأجلب لك الطعام، أشارت للمرضة فذهبت لجلب الطعام ثم غادرت خلفها.

خرجت الطبيبة من غرفة يوسف و نظرت يسارها وجدت السيد آدم قادم يعرج، أسرعت نحوه في قلق: أبي!

أومأ السيد آدم لعلي أن يتجه نحو غرفة أخيه ليطمئن عليه.

سار علي نحو الغرفة و فتح الباب ببطء.

كان يوسف ينظر نحو النافذة، نظر إلى الباب و رأى علي فحاول ان يجلس لكن منعه علي: لا بأس لا داعي ابقى مستلقياً فحسب.

- لا لا دعني أجلس أنا بخير.

عدّل علي السرير فارتفع قليلاً و جلس يوسف، تنهد علي ثم جلس على الكرسي و قال: ما الذي يحدث لك! ذهبت للمشفى أمس و ها أنت مجددا في أخرى!، كيف حالك الآن؟

- أنا آسف يا علي، أردت أن أسعى للأفضل، أردت ألا أجعلك بحاجة لإقتراض المال من اصدقائك و إن كان هذا شيء تراه بسيطاً، لكنه ليس كذلك بالنسبة لي، لم أرد أن أراك بحاجة لشيء و لا أحرك ساكناً، أردت أن أفعل شيئا جيداً، أردت أن أحسّن من وضعنا المادي، بذلت كل ما بوسعي صدقني، لكن في كل مرة تؤول الأمور إلى اللاشيء و هذه المرة آلت الأمور إلى الأسوء.

- ما الذي تقوله، انا أعرف أنك بذلت ما في وسعك ، حمّلتك عبئاً أثقل كاهلك، أنا من عليه أن يكون آسفاً، كلانا يعرف أن الحياة ليست وردية و ليست عادلة، علينا ان نعتاد على ذلك.

صمت قليلاً ثم أكمل: منذ قليل شعرت أننا لا شيء أمام هذا الرجل .

- توقف عن هذا،يمكنه مساعدتنا ما هو إلا أنسان مثلي و مثلك..

- لا ليس كذلك إنه لا يشبهنا و لا نشبهه توقف عن وهم نفسك البشر ليسوا متشابهون، لسنا كذلك أبداً، يصعب التعامل مع هذا النوع من البشر صدقني، أنا أشعر بالعجز، لا أشعر أنني أنتمي إلى هنا، لا أشبه هذا المكان، أريد حياتي القديمة، لا بأس باقتراض المال إن كانوا أصدقائي، أليس من واجب الأصدقاء أن يساندوا بعضهم... ماذا؟! أظننتني سأعيش عالة على أصدقائي، إنها فترة وحسب كنت أنوي أن أرد المال لكل من وقف بجانبي، حتى أنني لدي دفتر أدون به كل شيء أريد حقا....

- توقف يا علي أخبرتك أنني لن أعود إلى الشقة ما دمت لا أملك مالاً كافيا لرد ثمن السيارة التي تحطمت، و لن أجمع ثمنها و لو عملت عمري كله أنت لا تعرف أبداً كيف سيعاملني صاحب المطعم إن عدت دون سيارته، ولن تعرف أبداً كيف سيكون شعوري حينها.

- أنا لا أريد أن أفقدك، أنت تعرف أنني لا أملك في هذه الحياة إلا أنت، تعرف ذلك جيدا، و هذا الرجل في الخارج لا أعرف نواياه لقد عرض عليّ مساعدة لكن لم يذكر المقابل، أظن أنهم تشكيل عصابي كبير أنظر إلى ما يمتلكه في هذه المدينة الكبيرة، يمتلك نصف الميناء و لديه مدرسة، تعرف(A. M. S) انها مدرسته و هذه المشفى أيضا تعود له، ماذا برأيك سيكون المقابل، ماذا يريد منك؟

سمعا طرقاً على الباب ثم دخل السيد آدم، نظرا إليه، أغلق الباب ثم قال: كيف حالك يا يوسف؟

تقدم السيد آدم و ربت على كتف علي و طلب منه الخروج قليلاً.
نظر علي إلى يوسف و قال: سأكون بالخارج.
أومأ يوسف برأسه فخرج علي.
جلس السيد آدم و قال: هل أنت بخير؟
- أنا بخير .
- هذا جيد، أتيت لأخبرك...
قاطعه يوسف قائلاً: تأمرهم بضربي ثم تأتي لتطمئن عليّ، ماذا يعني هذا؟!
- عندما رأيتك شعرت بأن لك مستقبل أفضل من هذا، أنت فقط بحاجة لفرصة و قلت لنفسي لن أبخل بها.. ربما تظنني ولدت و في فمي ملعقة من ذهب، لكني ولدت فقيرا في حي صغير توفى والدي و عمري ست سنوات إثر حادث عمل، و قامت الشركة بتعويض أمي بمبلغ صغير لم يكفينا سوى شهرين لذا قررت أمي أن نذهب لنعيش مع جدي هنا في هذه المدينة الساحلية، كنا سنسافر بالقطار لكن أمي نسيت دوائي في المنزل فعادت لتجلبه لي و أخبرتني أن أنتظرها في القطار و ألا أنزل منه أبداً، مر الكثير من الوقت لكن لم تأت أمي و أقفل القطار أبوابه و غادر المدينة، كان جدي ينتظرني في محطة القطار، رآني فاحتضنني و ظن أن أمي خلفي ظل منتظراً لبضع دقائق ثم سألني عن أمي و أخبرته أنني وصلت وحدي، تعجب حينها و أخذني إلى منزله أشعل التلفاز لأتسلى بينما يبحث عن الهاتف ليتصل بها و يعرف أين هي و كيف تتركني وحدي في القطار، حالما أشعل التلفاز كانت قناة الأخبار تنقل خبر الفيضان في مدينتنا و عرضت صور الضحايا كانت صورة أمي من ضمنهم أغلق جدي التلفاز و أحتضنني بقوة حينها، لا أنسى أبداً هذا اليوم حاول جدي أن يتمالك نفسه و كان يضحك و يلعب معي حتى أتى المساء أخلدني إلى الفراش و بقى هو ساهراً، خرج إلى ساحة المنزل و زرع نبتة و بدأ بالبكاء، كان يبكي بحرارة، جفف دموعه و أسرع نحوي عندما سعلت ظن جدي أنني أصبت بالبرد أشعل النار لتدفأة الجو ثم أسرع نحو الصيدلية و جلب لي دواء السعال، لكن لم يجدي نفعا، أنا مريض ربو.

استمر يوسف بالنظر بانتباه شديد إلى السيد آدم بينما كان يروي قصته، أكمل السيد آدم: ظل جدي قلقا طوال الليل، لم ينتظر ضوء النهار ، كانت الساعة الخامسة صباحاً ذهب بي جدي إلى السيد فضل، كان رجل أعمال كبير و كان جدي يعمل لديه، كان جدي رجل بسيط لم يعرف كيف يتصرف، ذهب بي الى السيد فضل لأنه كان يملك مشفى و إذا لجأ إليه جدي سيأتي بأفضل طاقم طبي لديه، و بالفعل وضعوني في غرفتك هذه، و اهتموا بي كثيرا و أخبروا جدي بحالتي فحزن كثيرا، خرجت من المشفى و عشت مع جدي عامين كان يأخذني معه كل صباح لكن لأنه كان يعمل في البحر لم يوافق السيد فضل أن أذهب معه ، و أمر جدي أن يتركني برفقته إلى حين عودته من العمل، كان جدي يوافق بالطبع، استمر هذا الحال عامين فاشتد تعلق السيد فضل بي و أصبحت في عامي الدراسي الثاني، ألتحقت بمدرسة مرموقة بمال السيد فضل و اهتم بي كثيرا، و في يوم قارس البرودة مرض جدي كثيراً و هذه المرة هرعت أنا إلى السيد فضل أستنجد به، أتصل السيد فضل بالمشفى و ذهبت سيارة إسعاف إلى بيت جدي و أخذوه، أخذني السيد فضل إلى المشفى و كان جدي في غرفة العمليات.
جلسنا و لم يقل السيد فضل كلمة واحدة، بعد دقائق خرج طبيب و أسرع نحوه السيد فضل كانا يهمسان فلم أسمع شيئاً، بدا على السيد فضل الهدوء ثم تنفس الصعداء و كأنه سمع خبر جيد، عاد إلي و أخبرني أن جدي بخير و طلب مني العودة معه إلى منزله و في الصباح سيجعلني أراه.

و في الصباح أستيقظت و أحضرت لي الخادمة ملابس أنيقة، أرتديتها و بينما كنت أحضر نفسي لأبدو بشكل جيد من أجل أن يفرح جدي برؤيتي دخل السيد فضل الغرفة و ابتسم لي ثم جلس على ركبتيه و أمسك بكتفيّ و قال: عزيزي آدم تعرف أنني أحبك كإبن لي، أنت إبن جيد تعرف هذا، قلت له أجل و أنا أيضاً أحبك و أكمل كلامه و قال: لقد وعدتك أن ترى جدك في الصباح سآخذك الآن لتراه لكن أريد أن اخبرك شيئاً، لقد توفى جدك.

طال صمتي لدقائق، تبادرت إلى ذهني الكثير من الأفكار، كيف سآراه إن كان ميتاً؟ ما الفائدة إن رأيته و هو لا يراني؟ أردته أن يفرح برؤيتي أكثر من فرحتي برؤيته لم أكن أهتم بسعادتي بقدر إهتمامي بإسعاد جدي، لطالما عاملني بلطف أكثر من والدي الذي لم أكن أراه كثيرا، و أكثر من أمي التي كانت تتذمر من دوائي الغالي و تشعرني أنني عبء، كنت صغيراً على الإحساس بمثل هذا الشعور لكني كنت أشعر بهذا حقاً، و رغم أن جدي كان يذهب للعمل أيضاً لكن لم أشعر أبداً أنه مشغول كان يعوضني بحق عندما يراني لم ينم أبداً قبل أن أنام أنا حتى لو كان متعباً، كان يسعدني لذا أردت إسعاده بقدر ما استطعت.
أمسك السيد فضل بيدي و أخذني إلى جدي، رأيته في التابوت، جثوت على ركبتي و بكيت كثيرا و أبكيت من كانوا حولي.

قال يوسف: من كان هناك؟
أجابه السيد آدم بابتسامة: و كأنك تعرف الجميع، لا بد أنك فضوليّ.
صمت قليلا ثم قال: لقد كانوا جميعهم هناك، أصدقاء جدي في العمل، كل من يعمل لدى السيد فضل كانوا أمام بيته يرتدون سترات جلدية سوداء، كان هناك الكثير من الغيوم، و كان الجو ممطر.... لكن أعتقد أن دموعي كانت أكثر من المطر.
- بالكاد أمطرت إذاً!
- بل كانت تمطر بغزارة..

منذ ذلك اليوم و عشت في منزل السيد فضل و كبرت كإبن له، عندما اشتد مرضه كتب لي كل ممتلكاته لكي أديرها و ها أنا ذا.

سأل يوسف: ماذا حل بالسيد فضل، هل مات؟
- ما زال حياً، لكنه في غيبوبة.
- لديك قصة جميلة يا سيد آدم... لكني لم أحصل على جواب لماذا أمرتهم بضربي إن كنت تريد مساعدتي كان من الممكن أن نتفاهم!
- سأتكفل بكل شيء يخصكما كان لا بد لي أن أعرف إلى أي عالم تنتميان و هذا إسلوبي ولا تسأل لماذا، المهم هو أنني سأتكفل بكل شيء لك و لأخيك، أعتقد أنه ما زال صغيرا و عنيدا و لن يستمع إليّ، إقنعه أنت حسناً، سأخرج الآن عليك ان تستريح.
- لماذا أردت مساعدتي؟
- عليك الإهتمام بالنتائج لا بالأسباب.

دخلت الطبيبة و معها الممرضة و قد أتت بالطعام، قدمت الممرضة الطعام ليوسف و خرجت و وقفت الطبيبة بجوار السيد آدم مبتسمة.
قال السيد آدم: إنها إبنتي رهف ، ما زالت تدرس لكنها تحب أن تباشر على المرضى من وقت لآخر.
قالت رهف: أبي... لماذا قلت أنني طالبة، كاد يصدق أنني طبيبة.
ضحك يوسف و نظرت إليه رهف بإعجاب، و لاحظ يوسف ذلك و تذكر كلمات العم حسن حينما قال (لديك ابتسامة جميلة مع ابتسامة كهذه يمكن لأي فتاة ان تقع في حبك من المرة الأولى، تذكر كلامي هذا).
ضحك السيد آدم و قال: لا بد أن يعرف أنكِ طالبة، إنه طالب في كلية الطب أيضاً فلا بأس أن يعرف، صحيح؟
نظرت رهف إلى يوسف في تعجب وقالت: تدرس الطب إذاً، في أي عام أنت؟
أجاب يوسف: في العام الثالث.
رهف: هذا جيد سنكون أصدقاء فأنا أيضاً في عامي الثالث.
هز يوسف رأسه في صمت، و أمسك السيد آدم بيد إبنته و قال: حسناً لنخرج الآن دعيه يستريح يمكنكما التحدث فيما بعد، كل جيداً يا يوسف.
قام السيد آدم متوجهاً نحو الباب خرجت رهف أولاً و أمسك السيد آدم بالباب و نظر ليوسف و قال: اليوم ذكرى وفاة جدي.

تعجب يوسف و ابتسم و قال: أعتقد أن هذا جواب كافٍ لسؤالي.
بادله السيد آدم الابتسام ثم غادر.

الساعة 6:00 مساءً .

خرج يوسف من الغرفة و قد ارتدى الملابس التي جلبها له السيد آدم، كان علي يجلس خارج الغرفة و عندما وقف أمامه يوسف في حلته الجديدة قال علي في دهشه: من أنت؟(ثم ابتسم)
أبتسم يوسف و أخذ علي من يده و قال: تعال.

جلسا على كرسي بجوار شجرة كبيرة في حديقة المشفى، كانت مزهرة أزهار زاهية و جميلة و كانت الشمس على وشك الغروب بلونها البرتقالي اللامع كان منظراً جميلاً، بدأ يوسف يوضح نية السيد آدم لعلي و أخبره أنه سيتكفل بكل شيء.

في تلك الأثناء ترجل السيد آدم من سيارته و في يده زهرة بيضاء جميلة، اتجه نحو قبر جده و وضع له الوردة و قال: مرحبا جدي، اليوم ذكرى وفاتك لذا أنا هنا، أنا آسف لأني لا أزورك كثيرا لكن هذا يوم لا يجب أن أفوته، اليوم ساعدت شابين ذكراني بنفسي و أحببت أن أدخل عليهما سعادة كما أسعدتني يا جدي العزيز، لقد شعرت بسعادة اليوم و أتيت لأشارك سعادتي معك أتمنى أن تكون سعيداً أيضاً، الشاب الكبير يدرس الطب مثل ابنتي و لديه أخ صغير يبدو أنه يفتقر إلى الكثير لكن لا تقلق سأهتم به و أربيه جيدا سأربيه على القوة رغم أنه في سن حرج، سن المراهقة الغبي، لكن لا بأس أستطيع السيطرة عليه، ما زال أبي (السيد فضل) في غيبوبته، أتمنى أن يتعافى قريباً أعتقد أنه في عامه السبعين.
وقف في صمت لدقائق ثم قال: حسناً أظن أن الشمس ستغيب قريبا سأغادر الآن.. وداعاً جدي العزيز.

في حديقة المشفى حيث يوسف و علي كانا يبتسمان و في غاية الرضا لما سيحدث شاكرين الله على هذه النعمة، بدأ يوسف بالتباهي أمام علي: هل أبدو أنيقاً؟ ما رأيك بهذا الزي؟
أجابه علي: إنه حقا رائع، متي سأحصل على ملابس أنيقة كتلك؟
- لا تقلق أصبحنا ننتمي للسيد آدم الآن لن يتركنا بدون ملابس أنيقة، بالطبع سيشتري لك.
- حسناً أريده أن يشتري لنا طعاماً أولاً، انظر كم الساعة لم نأكل شيئاً منذ الصباح.
- لنتصل به إذا.
حاول يوسف الاتصال بالسيد آدم لكن لم يجيب.
- هاتفه مغلق.
- هل تخلى عنا الآن؟ إنه يومنا الأول.
- إنه رجل أعمال... ربما يقوم ببعض الأعمال لا ندري.
وصل السيد آدم إلى المشفى، ناداه يوسف فأتى إليهما: كيف حالك يوسف؟
قال علي: و ماذا عني، لماذا تسأل عن يوسف فحسب ألا تراني!
ابتسم له السيد آدم ثم قال يوسف: انا بخير شكرا لك، اتصلت بك منذ قليل لكنك لم تجب.
- آه لقد أغلقت هاتفي، كنت في اجتماع مهم و نسيت أن أتفقد الهاتف، انا آسف.
- لا بأس أردنا فقط أن...
قاطعه السيد آدم: خذ هذه يا يوسف.
- ما هذه؟

- إنها بطاقة ائتمانية، بها ما يكفي من المال لشراء ما تريدان، ملابس و اية تكاليف أخرى.. تحسباً لربما يكون أحدكما خجولاً في طلب المال.

نظر يوسف إلى علي ثم قال: انا حقا لا أدري ماذا أقول، شكرا لك سيد آدم لا أحد يفعل هذا صدقني.

- نحن عائلة الآن، لا تنظرا إلى الأمر على أنه إعجاز، على العائلة أن تساعد بعضها... حسناً.

- حسناً.. إن كان الأمر كذلك، أريد أن أطلب منك طلب أنا حقاً آسف لكن و أنا في طريقي إلى هنا أخذت سيارة صديق لي، و تحطمت في حادث لم استطع أن أعود إلى بيتي لأنه صاحب المطعم و إن عدت دون سيارته سأقع في مشكلة كبيرة لذا أرجو أن تساعدني في شراء سيارة تعويضا له، حتى أتمكن من العودة.

- عزيزي يوسف، عزيزي علي، ما الذي تفكران به؟

صمت السيد آدم و تبادل يوسف و علي النظرات ظنا أنه سيرفض لكنه لم يكن يقصد ذلك قال السيد آدم: هل تفكران بالعودة إلى منزلكما القديم؟ حتى لو كانت هذه رغبتكما لن أدعكما تفعلا ذلك، ستعيشان في الشقة التي أخترتها لكما، في البناية الخاصة بي، تقع الشقة بجوار شقتي وهذا سيكون الأفضل بالطبع، بخصوص السيارة اعتبر الأمر تم، و كفى حديثاً لأنني جائع هيا نأكل.

قال علي: هذا هو الكلام السليم... هيا بنا.

ضحكوا جميعا وسار السيد آدم أمامهما، تساءل يوسف: ما الذي حدث لساقك يا سيد آدم؟

أشار السيد آدم نحو علي ثم نظر إلى ساقه و قال: آه هذا... لقد كان انتقام.

قال يوسف في دهشة: هل صحيح ما أفكر به؟

أجابه السيد آدم :صحيح جداً.

ابتسم يوسف وأخذ علي تحت ذراعه وسارا جنبا لجنب وركبوا جميعاً سيارة السيد آدم وغادروا.

✿ النـهـايـة ✿

شكرا لكم على القراءة

للتواصل: jungji938@gmail.com